ميدليڤانت MEDLEVANT

قرية النظافة

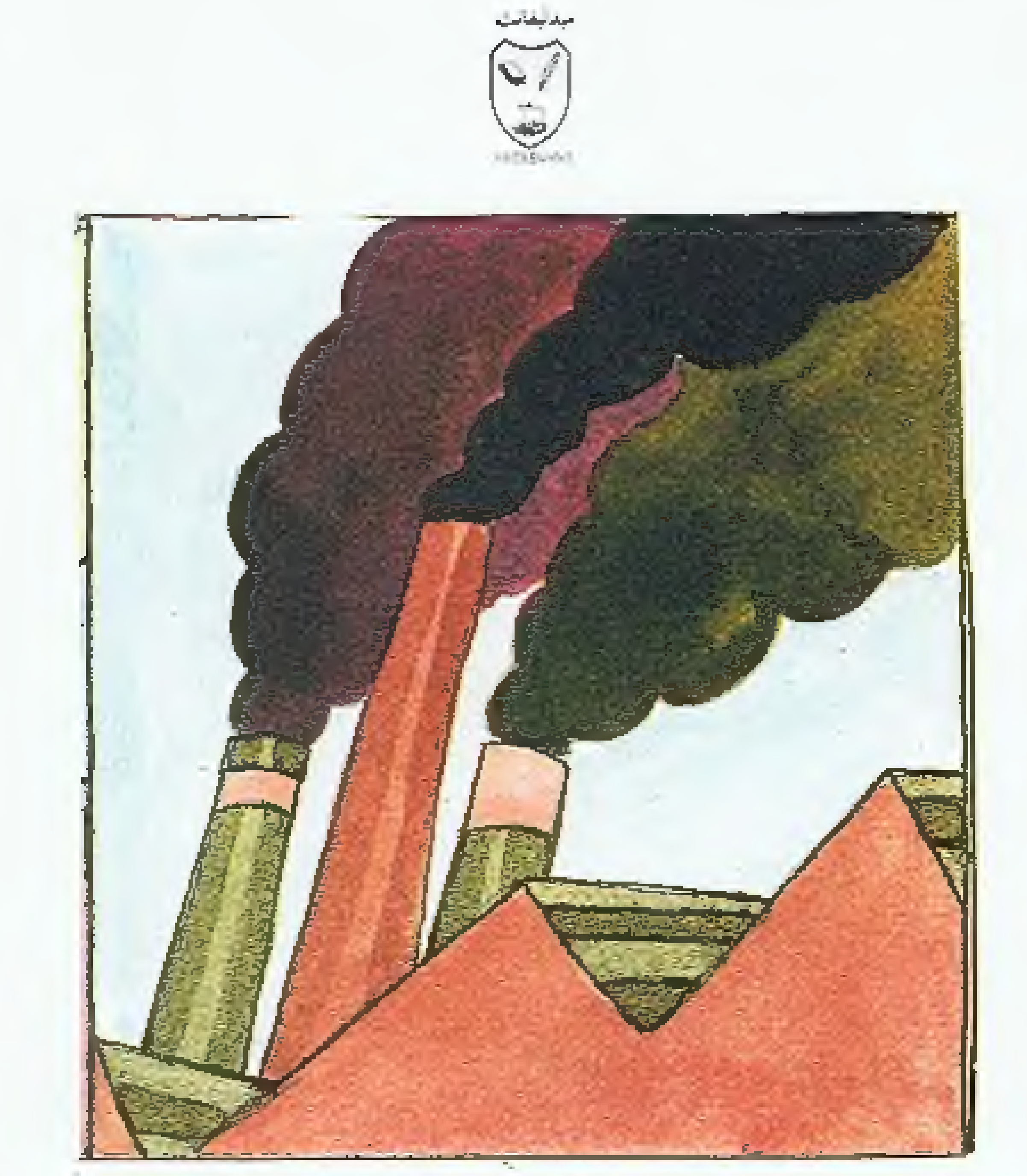


P.O. Box 3128
CH 6901-Lugano, Switzerland
I S B N 88 - 7674 - 032 - 5

First published 1984 الطبعة الأولى
Reprinted 1985 الطبعة الثانية

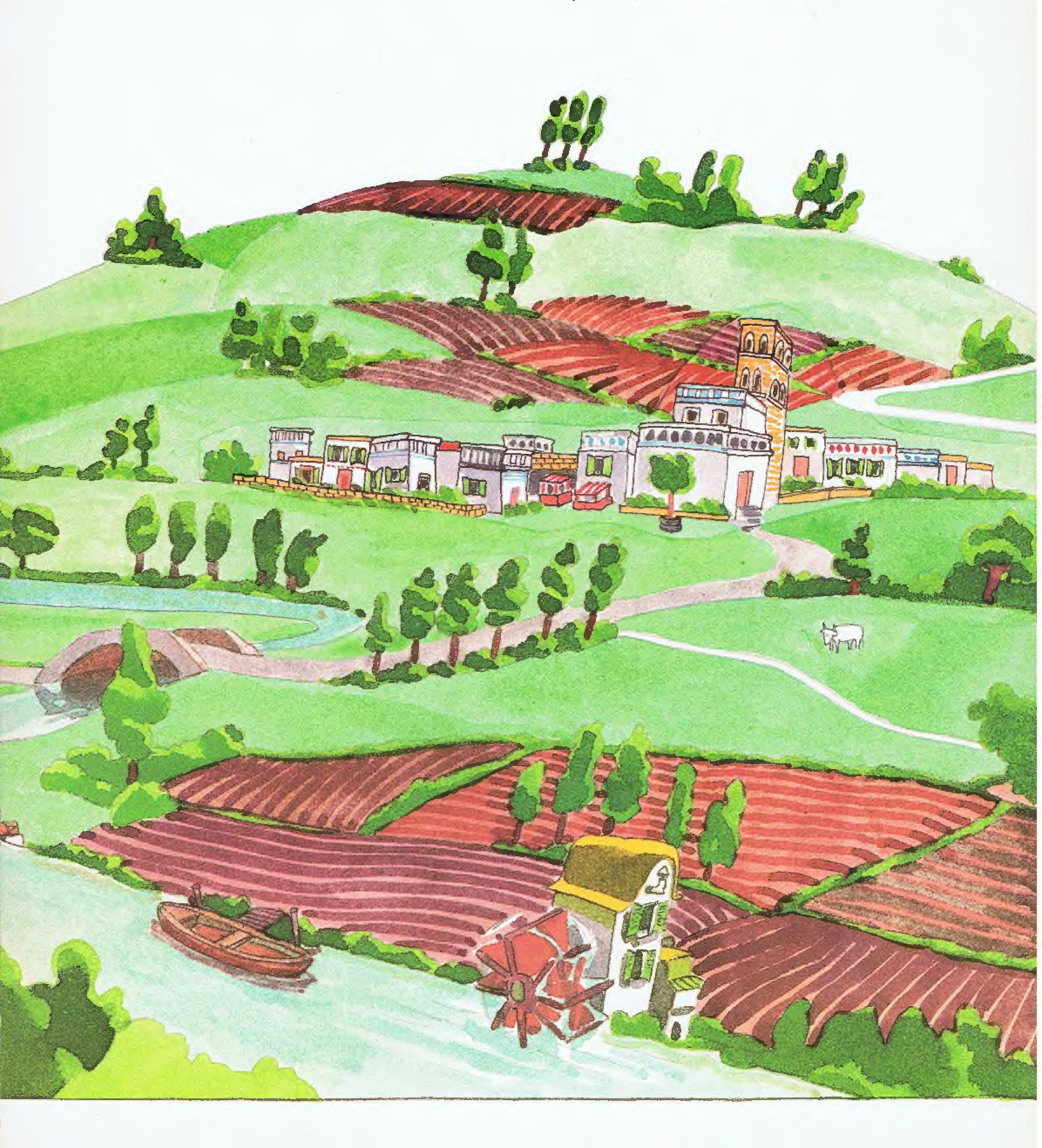
"نحن وما حولنا"

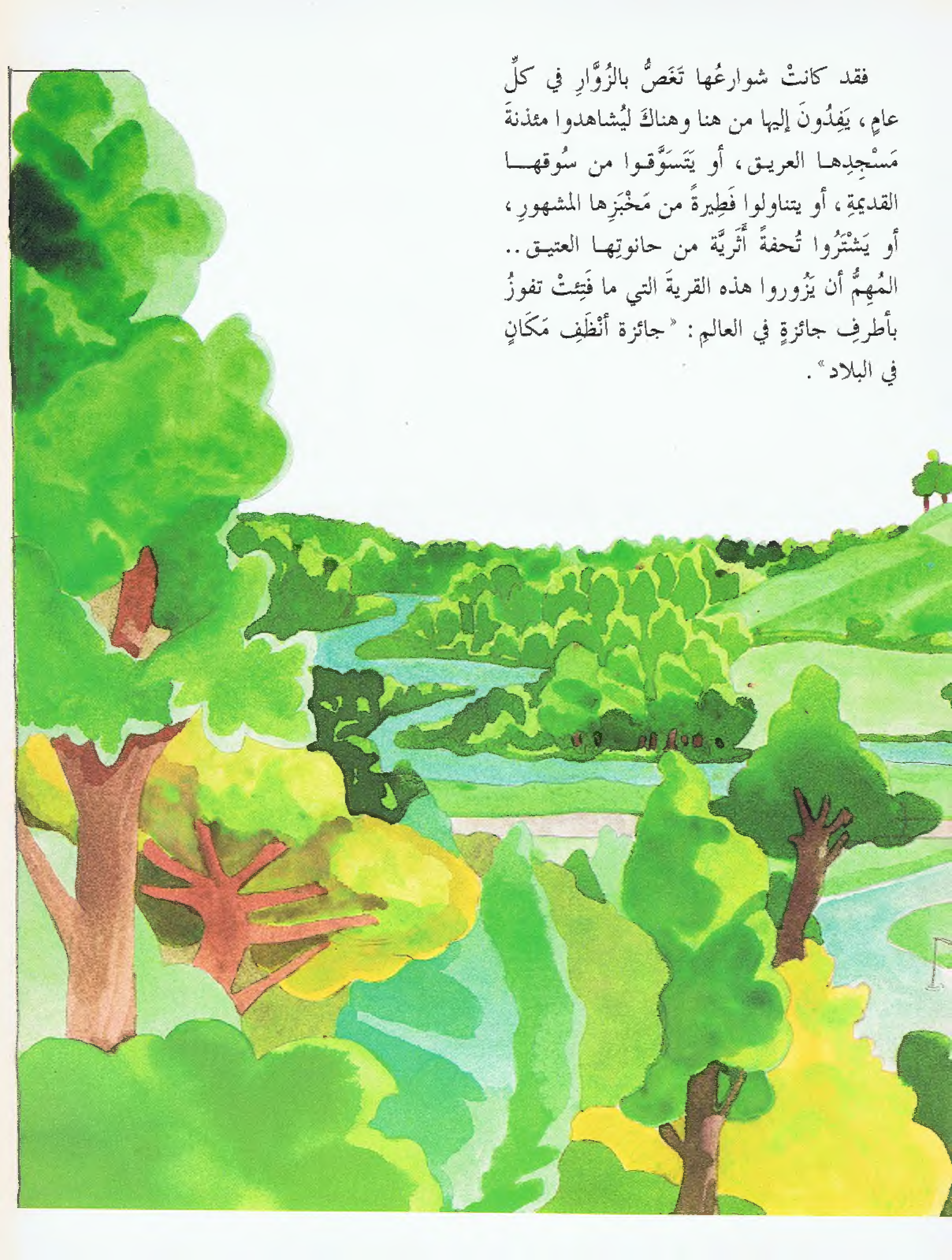
قرية النظافة



كانت قريةُ (الرَّامَة) تَجْثُم وادعةً مطمئنَّةً على سُفُوحِ تِلَال الصمَّان، حَيْثُ غابةُ النَسْرينِ الخضراءُ، التي تَنْسابُ فيها مياهُ نهرِ الرَقْرَاقِ الفِضِّيَّةُ، وتَتَلألأُ في ظلالِ أوراقِ شجرِ الحَورِ..

وكانت سُمْعَةُ قريةِ الرَّامَةِ قد عَمَّتْ كلَّ أنحاءِ المَعْمورةِ... ولو أنَّ عددَ سُكَّانِها لم يتجاوزْ مئةَ نَسَمَةٍ ونَسَمة..





فقد كانتْ شوارعُها تَغَصُّ بالزُوَّارِ في كلِّ عامٍ، يَفِدُونَ إليها من هنا وهناكَ ليُشاهدوا مئذنةَ مَسْجِدِها العريق، أو يَتَسَوَّقوا من سُوقِها القديمةِ، أو يتناولوا فَطِيرةً من مَخْبَزِها المشهورِ، أو يَشْتَرُوا تُحفةً أَثَرِيَّة من حانوتِها العتيق.. المُهِمُّ أن يَزُوروا هذه القريةَ التي ما فَتِئتْ تفوزُ بأطرفِ جائزةٍ في العالمِ: «جائزة أنْظَفِ مَكَانٍ في البلاد».



وقد كانَ كثيرٌ من زُوّار الرَّامَةِ يَفِدُونَ إليها من مدينةِ (السَّنْدانِ)، التي تَقَعُ علىٰ الجانبِ الآخرِ من تِلَالِ الصَّمَّان.. وهي مدينةٌ على النَّقيضِ من الرَّامَةِ، تَشْتَهِرُ بضجيجِها وصَخَبِها وكثرةِ الحَرَكَةِ فيها؛ فقد كانت مركزاً صناعياً مشهوراً، وفي المراكزِ الصناعيةِ الكُبْرىٰ تكثُرُ الثَرَوَاتُ، ولكنّها تَجْلُبُ معها الضَوْضَاءَ والأقذارَ..

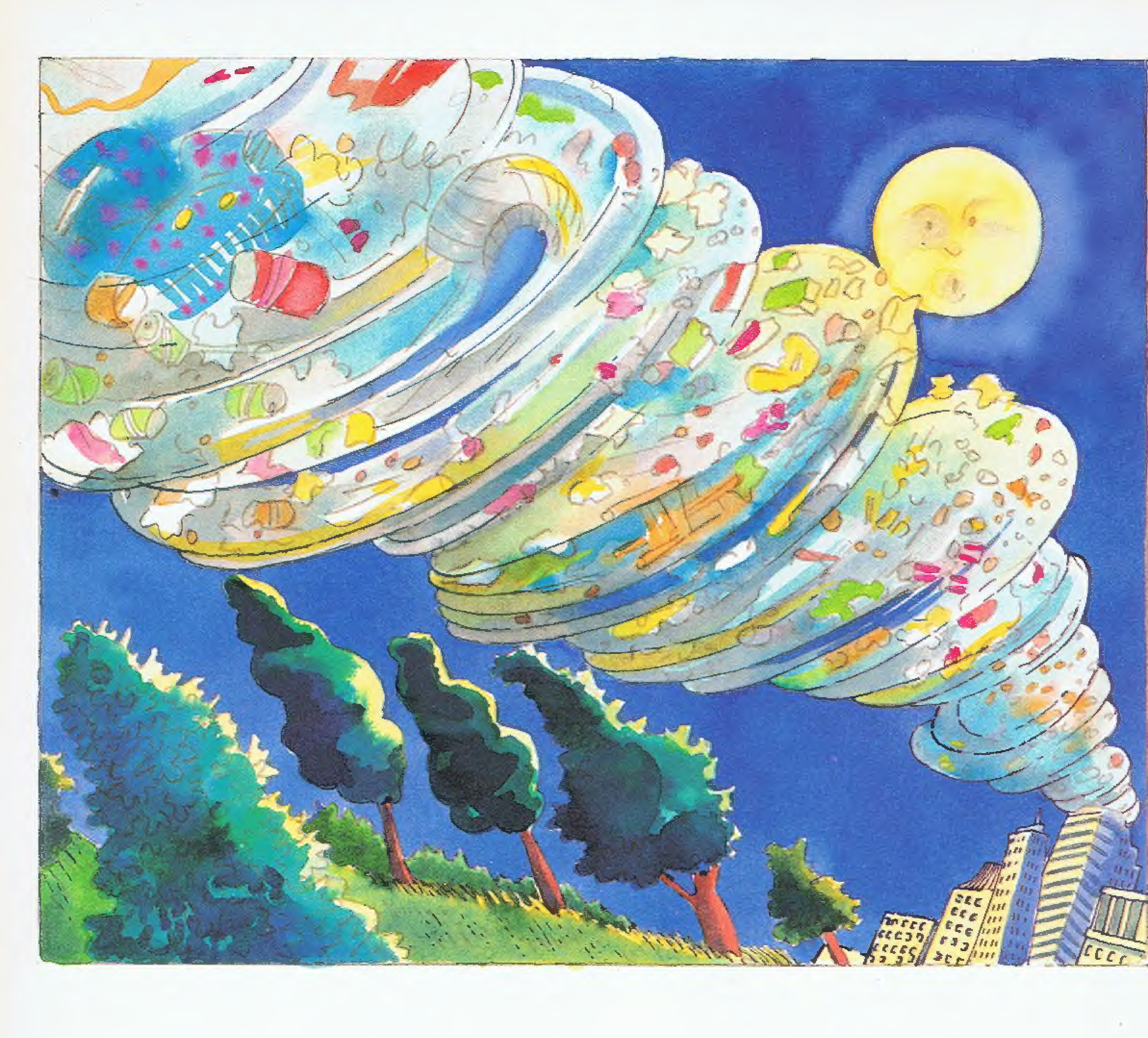
فلو أنّكَ ألقيتَ نظرةً علىٰ أهالي مدينةِ السَنْدان، لرأيتَهُمْ يُكْثِرُونَ من شراءِ الكَماليّاتِ بنَهَمٍ واندفاعٍ.. وهم يُكْثِرُونَ من المظلّاتِ الملوَّنةِ والقَصْرِيّات المُشْتَمِلَةِ علىٰ نباتاتٍ اصطناعيَّة، ليُزَيِّنوا بها حدائقَ بيوتِهم وشُرُفَاتِ منازلهم... وهٰذه كلُّها في عُرْفِهِمْ معالمُ الحَضَارةِ والرُّقِيّ.

وما كانوا يَكْتَرِثُونَ للفَوْزِ بجائزةِ النظافةِ والنظامِ السنويَّةِ، بَلْ لم يكونوا حريصينَ على إلقاءِ قُمَامَتِهِمْ ونُفَاياتِهِمْ في أماكِنِها المُنَاسِبَةِ بعيداً عن بَلْدَتِهِمْ.



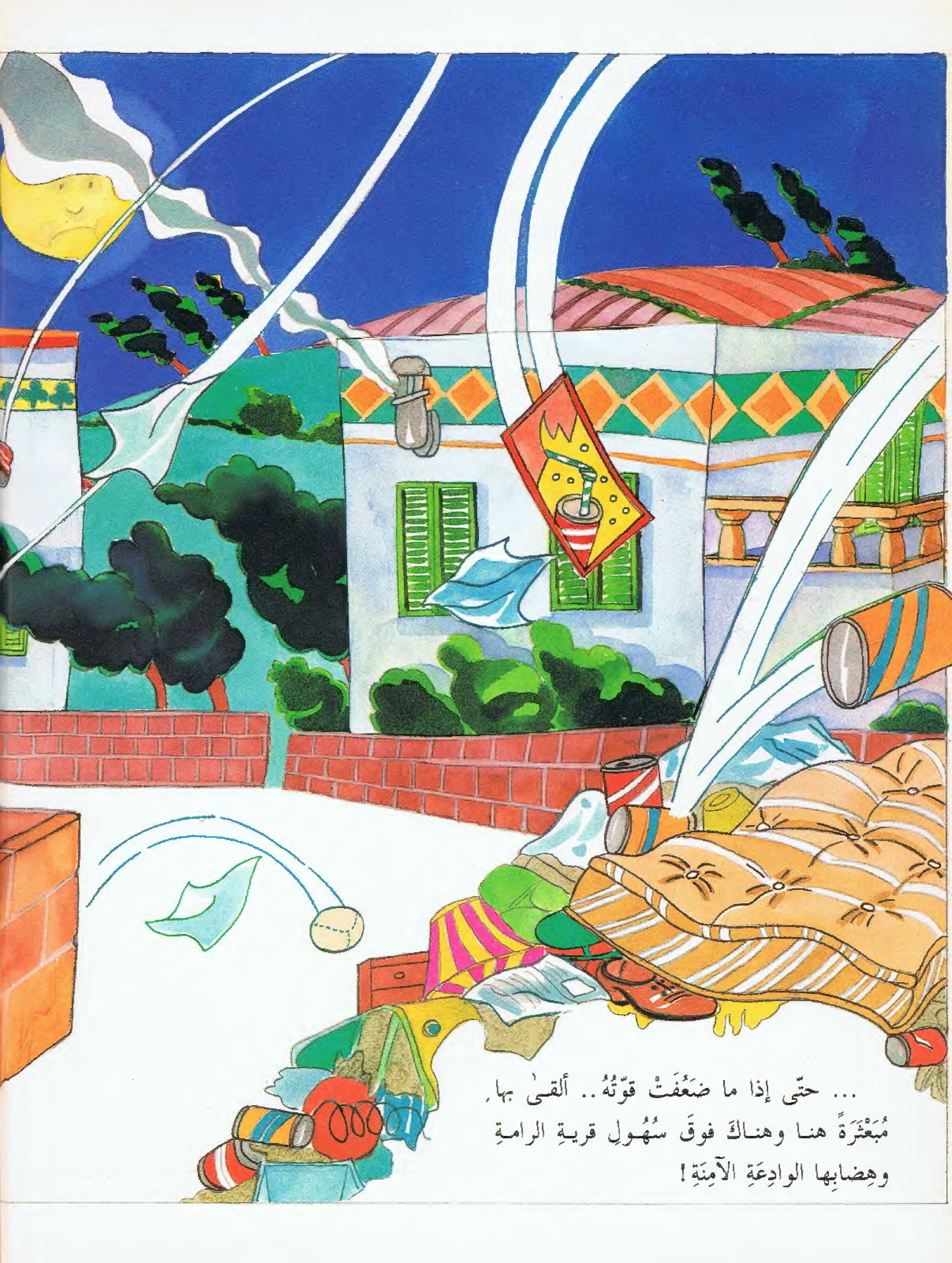


وفي إحدى ليالي الشتاءِ، اكْفَهَرَّتِ السماءُ، وهَبَّتْ رياحٌ عاتِيَةٌ فوق مدينة السَّنْدان، وأخذَتْ تتقاذَفُ السُحُبَ من كلِّ جانب. ثمّ طَوَّحَتْ بها بعاصفةٍ مجنونةٍ ضَرَبَتْ أغصانَها بعُنْفٍ وقسوةٍ.. ثم اندفعَتْ هٰذه الرياح الصاخبةُ في زَوْبَعَةٍ هادرة تَجْرِفُ كلَّ ما اعْتَرَضَ سبيلَها في الشوارعِ والحُقولِ، مُقْتَلِعَةً أيَّ شيءٍ في الأرض..



وقد أطْبَقَتْ هٰذهِ الريحُ العاتِيَةُ قَبْضَتَها القاسِيَةَ على قُمامةِ بلدة السَنْدان، وحملتها إلى الجوّ في دوّامةٍ حلزونيَّةٍ عاليةٍ وبَعْثَرَتْها في كلِّ اتّجاه! ثم ازدادَ جنونُ الرياحِ وهياجُها، إلى أن تَحَوَّلَتْ إلى تِنِّينٍ عاصفٍ، بدأ يَحْمِلُ كلَّ سقوفِ البيوتِ الخشبيةِ وأعْمِدَتِها، مُطَوِّحاً بها هنا وهناك، وقاذفاً بها محطَّمةً إلى الأرضِ.

وأخيراً استَجْمَعَ هٰذا التِنِّينُ كلَّ قُوَاهُ، وارتَفَعَ صاخِباً فوق المدينة، حاملاً معه أسلاباً من الحُطامِ والقُمَامَةِ والصنَاديقِ جَرَّها خلفه في ذَيْلٍ لَوْلَبِيّ.. وانْطَلَق بها فوقَ أجواءِ المدينةِ وحدودِها، عابراً بسرعةٍ رهيبةٍ سهولَها ومُنْحَدَرَاتِها...

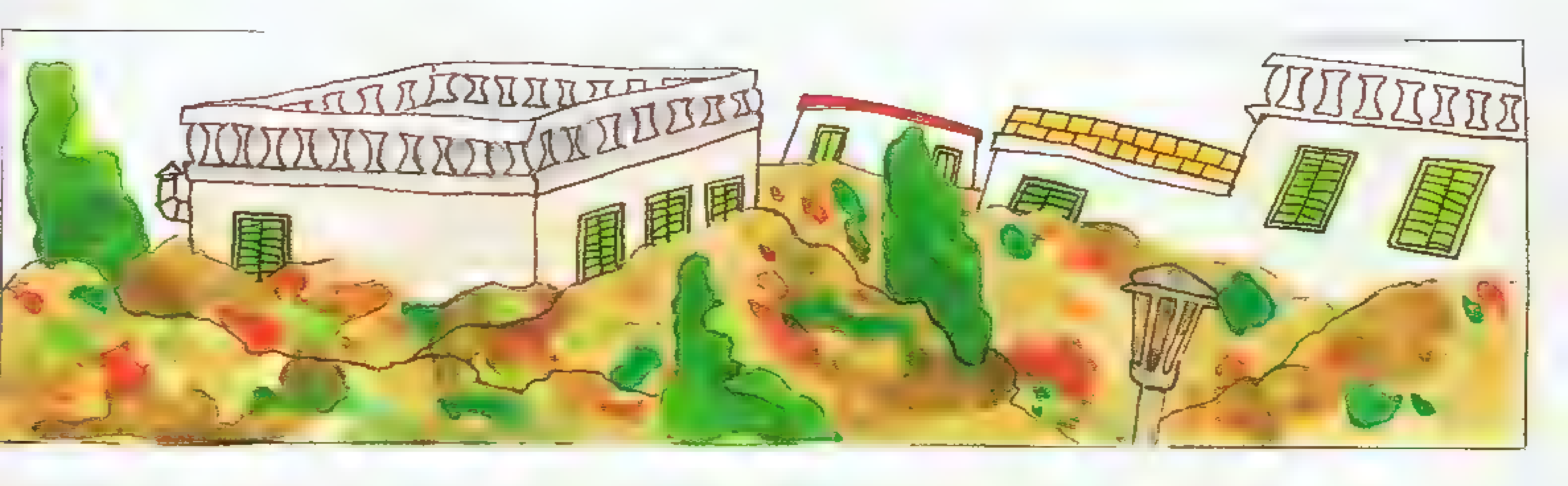


... حتّى إذا ما ضَعُفَتْ قوّتُهُ.. ألقىٰ بها، مُبَعْثَرَةً هنا وهناكَ فوقَ سُهُولِ قريةِ الرامةِ وهِضابِها الوادِعَةِ الآمِنَةِ!



أَمْضَى أَهْلُ القَرْيَةِ ليلةً قَلِقَةً. فعندما أَنْذَرَتِ الرياحُ بالهُبُوبِ، قاموا بإقفالِ نَوَافِذِ بيوتِهم وأَزْلَجوا أَبْوَابَها بِإحْكَامٍ، ثم جَلَسَوا في انتظارِ هدوءِ ضجيجِ الرياحِ وقَعْقَعَتِها في الخارج..

أما السيّدةُ كَرْمَةُ فقد باتَتْ مُتَنَبِّهَةً. ولم تَلْبَثْ أن سَمِعَتْ قرعاً على باب منزلها، فَخَفَّتْ لفَتْحِ الباب. فلمّا فَعَلَتْ فُوجِئَتْ بجسمٍ ضخمٍ يدفعُها جانباً بعُنْفٍ. أَمْعَنَتِ النظرَ فيه، فإذا هو عَجَلَةُ



دَرَّاجةٍ اندفعَتْ مُتَدَحْرِجَةً إلى داخلِ البيت .. ثمَّ تَبِعَتْهَا رِجْلُ كرسيٍّ مخلوعة، ثم لافِتَةٌ حمراء مرسومٌ عليها إشارة «ممنوع الدخـــول» .. ثم قَطِيفَةٌ عَتيقةٌ، فعِدَّةُ عُلَبٍ من الصَفِيح . وعندما خَمَدَتْ آخرُ هَبَّةِ ريحٍ، تَسَلَّلَتِ السيدة كَرْمَةُ من مَخْبَئِها بخوفٍ وحَذَرٍ، لترى آثارَ الدَّمارِ الذي خلَّفَتْهُ هذه الرياحُ العاصِفَة، ولَشَدَّ ما كانتْ دَهْشَتُها عندما وَجَدَتْ حديقَتها الجميلة مُغَطَّاةً بأكوامٍ ضخمةٍ كالجبال من النُفايات والحُطَام!

حاوَلتِ السيدةُ كَرْمَةُ أن تَشُقَّ طريقها إلى بيتِ جارَتِها مَبْروكَةَ فاستَغْرَق منها ذٰلك ساعة وبعضَ ساعَةٍ.. وهنالك وَجَدَتْهَا تَقِفُ مُرْتَعِشَةً مع ضحايا آخرينَ من الجيرانِ، يتحدَّثونَ عن كابوسِ هٰذه الليلةِ المُرْعِبَةِ..



سَيْطَرَ القَلَقُ والانْزِعاجُ علىٰ أهلِ القرية جميعاً أَوَّلَ الأمرِ. لكنَّ قَلَقَهُمْ لم يَلْبَثْ أنْ تَبَدَّدَ عندما تَيَقَّنُوا أن سكانَ القريةِ المِئةَ والوَاحِدَ خَرَجُوا سالِمِينَ من هٰذهِ المِحْنَة.. وإذْ ذاك وَجَّهَ أهلُ القريةِ اهتمامَهُمْ لحالةِ الفوضىٰ والخرابِ الّتي لَحِقَتْ بقريتِهِمُ الجميلةِ الوادِعَةِ. أجْمَعَ السُكّانُ كلُّهُمْ على أنّ شيئاً ما يجب أن يُفْعَلَ لإنقاذِ القَرْيَة. «لا أستطيع عمل الكثير» قالها خالد الكَنَّاسُ



مُتَنَهِّداً، «إنّ عَرَبَةَ الكُنَاسَةِ التي أجُرُّها مَطْمُورَةٌ تحت رُكامِ القاذورات»! «ثم إنَّ عربة كُنَاسةٍ واحدةً لا تكفي» كما قال الطبيبُ مُضَرُ حانقاً. «إنني لا أريد إزعاجك يا خالد، لكننا على ما أعتقِدُ سنحتاجُ إلى جيشٍ من عَرَبَات الكُنَاسة هنا!» فقالت كَرْمة: «إذَنْ علينا أن نطلب مساعدةً من المدينة.. بَلْ إننا سنحتاجُ كلَّ عَرَبَاتِ الكُنَاسة التي في المدينة» قالت مبروكة: «فلنَذْهَبْ لمُقَابَلَةِ مُحافِظِ مَدِينَةِ السَنْدان»



بَدَا المُحَافظُ ثقيلَ البِنْيَةِ ضَخْماً، حتّى كأنَّ عضلاتِهِ الحديديَّة قد صُبَّتْ في مصانع مدينة السَّنْدان للفولاذ، فَبَانَ شاباً قوياً.

واستَمَعَ المحافظُ إلى ما حَلَّ بقرية الرامَةِ ثمّ صاح:

«هٰذا فظيعٌ.. ستكونُ لَجْنَةُ اخْتِيَارِ «أنْظَفِ مَكان» هنا بعد أسبوع.... ونحن نَعْقِدُ الآمال على قَرْيَتِكُمْ للفَوْزِ بالجائزة، فكيف ستقومون بتنظيفها من جديد؟»

سادَ جَوٌّ من الصَمْتِ الطويلِ على القاعة، ثم بادَرَتِ السيدةُ مبروكةُ بتَوْجِيهِ سؤالٍ على اسْتِحْياءٍ: «هَلْ سنقوم نحن بعمليَّةِ التنظيفِ؟»

فأجابها المحافظ: «نعم بالطَبْعِ.. وماذا في الأمر؟»





قال الكنّاسُ: «عفْوَكَ يا سيّدي.. ولٰكنّ عَرَبَةَ الكُناسَةِ مدفونةٌ تحتَ الأنقاضِ.. ومعها كلُّ عُدَّةِ الكَنْسِ والتنظيف..»

ثمّ قرَّرَ المُحافِظُ أنّ طبيعةَ المشكلةِ تَسْتَدْعي تَدَخُّلَ شخصٍ في مَنْصِبٍ أقلَّ من مُسْتَواهُ. لذٰلك أمَرَ باستِدْعاءِ مُوَظَّفِ البَلَديَّة.

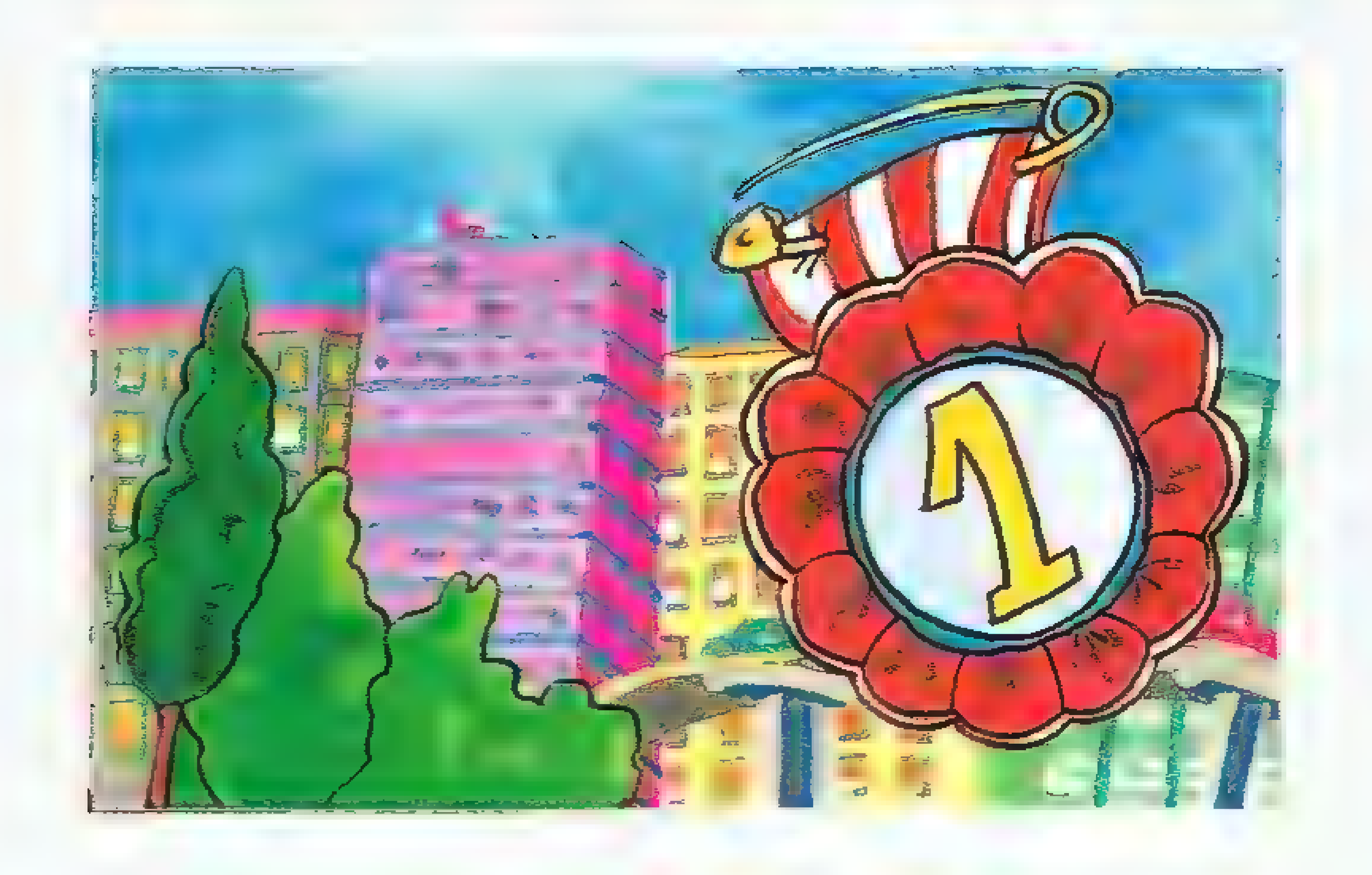
وأبدىٰ أمينُ البلديَّة تعاطُفاً كبيراً مع القَرَوِيّينَ؛ فاقْتَرَحَ بأن يُعْطىٰ خالدٌ عَرَبَةَ قُمامَةٍ جديدةً، شَرِيطَةَ أن يُوافق على شرائها مُحاسِبُ المجلسِ البَلَديّ. ولكنّ المحاسبَ لَفَتَ نَظَرَهُ إلى أن ثَمَنَ عَرَباتِ القُمامَةِ غالٍ جداً. وإلى أنّ عربةً واحدةً لا تكفي. واقْتَرَحَ أن تُرْسَلَ عربات



قُمَامَةِ بلدة السَنْدان إلى قرية الرامة بدلاً من شراءِ عَرَبَةٍ جديدة. ولكنّ محاسبَ المجلس البلدي ليست لديه صلاحيات إرسال هٰذه العَرَبات. ولذلك تَقَرَّر اللجوءُ إلى رئيس دائرة التنظيفات.

لكن رئيس دائرة التنظيفات نَبَّهَ الحاضرين إلى وجود اتِّفاق مع رئيسِ اتّحادِ عُمَّالِ النظافة يقضي بأن عُمَّال نظافة بلدةِ السَنْدانِ يقومونَ بجَمْعِ نُفاياتِ المدينةِ ذاتِها ولا يَتعَدَّوْنَها إلى مكانٍ آخرَ.





وهُنا نَبَّهَ أَحَدُ الحَاضِرِينَ إِلىٰ أَنَّ مَدِينَةَ السَّنْدَانِ هي الَّتي سَتَفُوزُ بِجَائِزَةِ أَنْظَفِ مَكَانٍ في البِلَادِ بَعْدَمَا حَمَلَتِ الرِّيحُ قُمَامَتَها وَنَقَلَتها إِلىٰ القَرْيَةِ لِتَسْتَقِرَّ فيها...

قَالَ المُحَافِظُ ضَاحِكاً مَسْرُوراً: «لَقَد ٱسْتَقَرَّتِ القُمَامَةُ هُنَاكَ... وأَحْسَنَتِ الرِّيحُ صُنْعاً».

آستَيْقَظَ أَهْلُ القَرْيَةِ صبَاحَ اليَوْمِ التالي وأَخَذَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَعْمَلُ بِجَدٍّ ليزيلَ جَبَلَ الأَنْقَاضِ والقُمَامَةِ الذي خَلَّفَتهُ الرِّيحُ...

وَيَالَهَا من مُفَاجَأَة: فَقد كانَ أَوَّلَ الوافدين إلى كَوْمَةِ الأنقاضِ تاجِرُ العَتَائِقِ عِمادُ الدين ومعه عَرَبَتَهُ التي يَجُرُّها حمارُه. وشَرَعَ عمادُ



الدين يتجوَّل في أزِقَّةِ القريـةِ صائحـاً: «حديـدٌ قديـمٌ للبَيْـع.. طَنَاجِـرُ للبَيْـع.. ملابِسُ عتيقـةٌ للبيع.. أحذيةٌ للبَيْع..»

نظرَ أهلُ قريةِ الرَّامةِ بعضُهم إلى بعضٍ، ثم قالَ السيّدُ الخَضِرُ: «تفضَّلْ يا عماد الدين واخْتَرْ ما شِئْتَ.. كَمْ ستُعطينا ثمناً لهٰذا السريرِ النُحاسي.. وهٰذه الدرَّاجاتِ القديمة؟»

وقالت السيدةُ كَرْمة: «كمْ ستدفعُ لي ثَمَنَ هذا الفُرْنِ القديمِ، وهٰذه المِقْلاةِ المُهْتَرِئَة؟»

غادَرَ عِمادُ الدينِ القريةَ تغمُرُه الفَرْحةَ.. فقد شَحَنَ عربتَهُ بأكوامٍ من الأثاثِ المحطَّم، ولم يدفع في مقابلِ ذٰلك سوىٰ أربع قطعٍ من الدَرَاهِمِ اللمَّاعةِ. وكان يُمَنّي نفسَهُ بعودةٍ ثانيـةٍ..... وحِمْلٍ أوفَر!



ولم يَلْبَثْ أن ظَهَرَ بائعٌ مُتَجَوِّلٌ آخرُ.. سَمِعَ عن أكوامِ الأنقاضِ، فهُرِعَ إلى القريةِ المنكوبةِ.. للاسْتِفْتَاح.

– «سآخذُ كلَّ الزجاجاتِ الفارغةِ.. انظُروا إلى هذه الأكوام.. لِمَ لا تُعْطُونَنَا هٰذه الزجاجاتِ بدلاً من رَمْيِها فارغةً هنا وهناك.. في أماكِنَ خَطِرَة؟»

ولمّا تَحرّكت الشاحِنَةُ مُزَقْزِقَةً بحِمْلها الوفير، سأَلَ الطبيبُ مُضَرُ البائعَ المتجوِّلَ وهو يرمي بضعَ زجاجاتٍ أخرىٰ فوقَ الشاحنةِ: «ماذا ستَفْعَلُ بهذا الحِمْل يا صديقي؟»



ـ « سأُعيدُ الصَّالحَ من الزُجاجاتِ للمَصْنَعِ المُنْتِجِ ، حيثُ يقومُ العُمَّالُ بتنظيفِها وتعقيمِها ، ثُمَّ يُعَبِّئونَها مرةً أخرىٰ . أما الزجاجاتُ المَعْطُوبَةُ فإنها تُطْحَنُ وتُصْهَرُ وتُحَوَّلُ إلى زجاجاتٍ جديدة .. إننا لا نرمي شيئاً .. وشكراً لِهِمَّتِكُمْ أيُّها الأَحِبَّةُ .. وإلى لِقاءٍ قريب ! » ثم انْطَلَقَ البائعُ بعدَ أنْ أطلَقَ لِبُوْقِ عَرَبَتِهِ العِنَانَ ..



ثُمّ ظَهَرَتْ شاحنةٌ كبيرةٌ تَحْمِلُ لافتةً مكتوبٌ عليها: «أَلَمِنْيوم عتيق للبيع» وتَبِعَتْها أخرىٰ مكتوبٌ عليها: «صَفيح فارغ للبيع» قال خليل: «افْرِزُوا لي عُلَب الصَفيح الفارغة وسأقومُ بشرائِها كلِّها.»

قال عليّ صاحبُ شاحِنَةِ الألمنيوم: «إنّنا نرمي ملايينَ عُلَبِ الصفيحِ سنوياً.. وعُمّالُ المناجِمِ يقومونَ بإخراجِ آلافِ الأطنانِ من الحديدِ سنوياً من جَوْفِ الأرضِ، فلِمَ لا نُذيبُ هٰذه العُلَبَ الفارغةَ ونَضْغَطُها ونَصْنَعُ منها عُلَباً جديدة؟»

وسَرْعانَ ما امتلأتْ شاحِنَتَا عليٍّ وخليلٍ، وساقاها مُلَوِّحَيْنِ بأيديهِما ومُوَدِّعَيْنِ قريةَ الرَّامةِ، وواعِدِينَ بالعَوْدَةِ سريعاً بعد تَفْريغِ حَمُولَتِهِما.

وَصَلَ السيدُ عُثْمانُ الوَرّاقُ إلى المكان، وذَكَرَ أنه يستطيعُ جَمْعَ كلِّ الأوراقِ المُبَعْثَرَةِ، من أجْلِ تحويلها في مصنع الورق إلى مَعْجُون. ثم عَصْرِها لتَنْفَرِشَ صَحَائفَ قويَّةً وتَتَحَوَّلَ إلى وَرَقٍ رقيقٍ ناعمٍ جديد.

ثمّ أرْدَفَ قائلاً: «إنّ هٰذه الأوراقَ المُكَوَّمةَ ليست قُمَامةً بالنسبة إليَّ، ولٰكنّها صفائح من الذَهَبِ الخالص!»



وفي اليوم التالي قام عمادُ الدين وعليٌّ وخليلٌ بانتقاءِ ما يريدونَهُ من جَبَلِ القُمَامةِ والأنقاضِ.





وفي غَمْرَةِ انْهِمَاكِ الجميع برَفْعِ الأنقاضِ، وإزالةِ القُمَامَةِ، وتَحْمِيلِ الشَاحَنَاتِ بالأثاثِ والأدواتِ التالِفَةِ، لم يَشْعُرْ أهلُ قريةِ الرَّامَةِ بأنَّ أكوامَ الرُكامِ الجَبَلِيَّةَ أخذَتْ في التَضاؤُلِ؛ لكنَّ تَفَاؤُلَ أهلِ القريةِ لم يَدُمْ طويلاً... والابتساماتِ العريضةِ التي ارْتَسَمَتْ على وُجُوهِهِمْ بدأت تَتَلاشىٰ، لأنّهم أخَذُوا يُلاحظونَ مدىٰ الدَمَارِ الذي حَلَّ ببيوتِهِم. فها هي نوافِذُهُمُ التي تَهَشَّمَ زجاجُها، وجدرانُهُم التي اتَّسَخَ ظاهِرُها، وبيوتُهم التي تَقَشَّرَ دِهانُها.. وأَضْحَتْ جميعاً في حاجةٍ إلى جهدٍ كبيرٍ في الترميمِ والإصلاحِ.





اقْتَرَبَ مَوْعِدُ قُدُوم لَجْنَةِ اخْتِيَارِ «أَنْظَف مَكَان» وعلىٰ أَهْلِ القَرْيَةِ أَن يَتَدَبَّروا أَمْرَهَمُ قَبْلَ قُدُومِها.

يبدو أَنّ القَرْيَةِ غَيْر قَادِرَةٍ على الفَوْزِ بالجَائِزَةِ رَغْمَ عَزْمِ أَهْلِهَا علىٰ بَذْلِ كلّ ما يُمْكِنُ بَذْلُه.

كانت السَّيِّدَةُ مَبروكَةُ تَعي ذلك وتكاد تَذْهَبُ نفسُها حَسَراتٍ.

قَالَ قائِلٌ مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ: «إِنَّ هٰؤُلاءِ البَاعَة سُعَدَاءَ لِتَخْلِيْصِنا مِن هٰذِهِ القُمامَةِ والأَنقاضِ.» قَالَ الطَبيبُ مُضَر: «ويَدفعونَ لنا مقابِلَهَا! هيَّا.. لِنَضَع ما يَدْفَعُهُ البَاعَةُ في هٰذا الوِعَاء.»



وَقَاطَعَتهُ السَّيِّدَةُ كَرْمَةُ قائلة : «لَدَيْنَا الآن صُرَّةٌ من الدَرَاهِمِ لِقَاءَ ما بِعْنَاهُ من الأَنْقَاضِ ... وسَنَشْتَرِي في مُقَابِلِ كُلِّ حِمْلِ شاحِنَةٍ من الرُكَامِ عربة مملوءةً بالأَزْهَارِ، سَنَشْتَرِي دهاناً وما ينقُصنا من الخشَب حَتَّىٰ نعيدَ قريتنا سِيرَتَهَا الأُولىٰ».



تِلْكَ كانت حلاوةُ قريةِ الرامةِ التي شاركَ الجميعُ في المحافظةِ علينا والعنايةِ بها، وقد أَضْفَتْ هٰذِهِ الحلاوةُ والجمالُ شُعُوراً مُحَبَّباً بالوَدَعَةِ والهُدُوءِ والأَمَانِ على كلِّ مَنْ عاشَ فيها أو رآها...



وانْتَعَشَتْ حديقةُ السيدةِ مبروكةَ وسَرْعانَ ما عادَتْ الزَنَابِقُ تَحُفُّ بِبِرْكَتِها الجميلةِ.. ونَشَطَ أهلُ الرَّامَةِ يَغْسِلُون أزِقَّتَها وطُرُقَاتِها.. ويُعيدونَ تَنْظيمَ القريةِ وتَجْميلَها.. حتّى إذا ما وصلَ المحكّمونَ مَنَحُوها بكُلِّ جدارةٍ جائزةَ أنظفِ مَكَانٍ في البلاد.

صدر من هذه السلسلة

الشجرة المهاجرة

البيضة الغريبة

قرية النظافة

القطرة الأبية



I S B N 88 - 7674 - 032 - 5